تفسير إبن كثير

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى االله عليه وسلم باسم الرسالة ، وآمرا له بإبلاغ جميع ما أرسله االله به ، وقد امتثل صلوات االله وسلامه عليه ذلك ، وقام به أتم القيام

.قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبي ، عن مسروق عن عائشة قالت : من حدثك أن محمدا صلى االله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب ، االله يقول : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) الآية .هكذا رواه ههنا مختصرا ، وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولا . وكذا رواه مسلم في " كتاب الإيمان " والترمذي والنسائي في " كتاب التفسير " من سننهما من طرق ، عن عامر الشعبي ، عن مسروق بن الأجدع عنها رضي االله عنها

.وفي الصحيحين عنها أيضا أنها قالت : لو كان محمد صلى االله عليه وسلم كاتما من القرآن شيئا لكتم هذه الآية : (وتخفي في نفسك ما االله مبديه وتخشى الناس واالله أحق أن

تخشاه) [الأحزاب : 37] .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال له : إن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئا لم يبده رسول االله صلى االله عليه وسلم للناس . فقال : ألم تعلم أن االله تعالى قال : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) واالله ما ورثنا رسول االله صلى االله عليه وسلم سوداء في بيضاء .وهذا إسناد جيد ، وهكذا في صحيح البخاري من رواية أبي جحيفة وهب بن عبد االله السوائي قال : قلت لعلي بن أبي طالب رضي االله عنه : هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يعطيه االله رجلا في القرآن ، وما في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر .وقال البخاري : قال الزهري : من االله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل ، في خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من الصحابة نحو من أربعين ألفا كما ثبت في صحيح مسلم ، عن جابر بن عبد االله أن رسول االله صلى االله عليه وسلم قال

في خطبته يومئذ : " أيها الناس ، إنكم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون؟ " قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويقلبها إليهم ويقول : " اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت " .وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا فضيل - يعني ابن غزوان - عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول االله صلى االله عليه وسلم في حجة الوداع : " يا أيها الناس ، أي يوم هذا؟ " قالوا : يوم حرام . قال : " أي بلد هذا؟ " قالوا : بلد حرام . قال : " فأي شهر هذا؟ " قالوا : شهر حرام . قال : " فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا " . ثم أعادها مرارا . ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : " اللهم هل بلغت! " مرارا - قال : يقول ابن عباس : واالله لوصية إلى ربه عز وجل - ثم قال : " ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " .وقد روى البخاري عن علي ابن المديني ، عن يحيى بن سعيد عن فضيل بن غزوان ، به نحوه .وقوله : (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) يعني : وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به (فما بلغت رسالته) أي : وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وإن لم تفعل

فما بلغت رسالته) يعني : إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي : حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان ، عن رجل عن مجاهد قال : لما نزلت : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) قال : " يا رب ، كيف أصنع وأنا وحدي؟ يجتمعون علي " . فنزلت (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)ورواه ابن جرير من طريق سفيان - وهو الثوري - به .وقوله : (واالله يعصمك من الناس) أي : بلغ أنت رسالتي ، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك .وقد كان النبي صلى االله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يحرس كما قال الإمام أحمد :حدثنا يزيد ، حدثنا يحيى قال سمعت عبد االله بن عامر بن ربيعة يحدث : أن عائشة كانت تحدث : أن رسول االله صلى االله عليه وسلم سهر ذات ليلة ، وهي إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول االله؟ قال : " ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة؟ " قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : " من هذا؟ " فقال : أنا سعد بن مالك . فقال : " ما جاء بك؟ " قال : جئت لأحرسك يا رسول االله . قالت : فسمعت غطيط رسول االله صلى االله عليه وسلم في نومه

. أخرجاه في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري به .وفي لفظ : سهر رسول االله صلى االله عليه وسلم ذات ليلة مقدمه المدينة . يعني : على أثر هجرته [إليها] بعد دخوله بعائشة رضي االله عنها ، وكان ذلك في سنة ثنتين منها .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصري - نزيل مصر - حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد - يعني أبا قدامة - ، عن الجريري ، عن عبد االله بن شقيق عن عائشة [رضي االله عنها] قالت : كان النبي صلى االله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية : (واالله يعصمك من الناس) قالت : فأخرج النبي صلى االله عليه وسلم رأسه من القبة ، وقال : " يا أيها الناس ، انصرفوا فقد عصمني االله عز وجل " .وهكذا رواه الترمذي ، عن عبد بن حميد وعن نصر بن علي الجهضمي كلاهما عن مسلم بن إبراهيم به . ثم قال : وهذا حديث غريب .وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه ، من طرق مسلم بن إبراهيم به . ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وكذا رواه سعيد بن منصور ، عن الحارث بن عبيد أبي قدامة [الإيادي] عن الجريري ، عن عبد االله بن شقيق ، عن عائشة به .ثم قال الترمذي : وقد روى بعضهم هذا عن الجريري ، عن ابن شقيق قال : كان

النبي صلى االله عليه وسلم يحرس . ولم يذكر عائشة .قلت : هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن علية وابن مردويه من طريق وهيب كلاهما عن الجريري عن عبد االله بن شقيق مرسلا وقد روي هذا مرسلا عن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي رواهما ابن جرير والربيع بن أنس رواه ابن مردويه ثم قال :حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن رشدين المصري ، حدثنا خالد بن عبد السلام الصدفي ، حدثنا الفضل بن المختار ، عن عبد االله بن موهب عن عصمة بن مالك الخطمي قال : كنا نحرس رسول االله صلى االله عليه وسلم بالليل حتى نزلت : (واالله يعصمك من الناس) فترك الحرس .حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا حمد بن محمد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادي ، حدثنا كردوس بن محمد الواسطي ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : كان العباس عم رسول االله صلى االله عليه وسلم فيمن يحرسه ، فلما نزلت هذه الآية : (واالله يعصمك من الناس) ترك رسول االله صلى االله عليه وسلم الحرس .حدثنا علي بن أبي حامد المديني ، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد ، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعري ، حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن

معاوية بن عمار ، حدثنا أبي قال : سمعت أبا الزبير المكي يحدث عن جابر بن عبد االله قال : كان رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه ، حتى نزلت : (واالله يعصمك من الناس) فذهب ليبعث معه ، فقال : " يا عم ، إن االله قد عصمني ، لا حاجة لي إلى من تبعث " .وهذا حديث غريب وفيه نكارة فإن هذه الآية مدنية ، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية .ثم قال : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الحميد الحماني ، عن النضر ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رسول االله صلى االله عليه وسلم يحرس ، فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه ، حتى نزلت عليه هذه الآية : (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته واالله يعصمك من الناس) قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه ، فقال : " إن االله قد عصمني من الجن والإنس " .ورواه الطبراني ، عن يعقوب بن غيلان العماني ، عن أبي كريب به .وهذا أيضا غريب . والصحيح أن هذه الآية مدنية ، بل هي من أواخر ما نزل بها ، واالله أعلم .ومن عصمة االله [عز وجل] لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها

ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلا ونهارا ، بما يخلقه االله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة . فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيسا مطاعا كبيرا في قريش وخلق االله في قلبه محبة طبيعية لرسول االله صلى االله عليه وسلم لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرا ، ثم قيض االله [عز وجل] له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهي المدينة فلما صار إليها حموه من الأحمر والأسود ، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده االله ورد كيده عليه ، لما كاده اليهود بالسحر حماه االله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ، ولما سم اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه االله به وحماه [االله] منه ; ولهذا أشباه كثيرة جدا يطول ذكرها ، فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة :فقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال : كان رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا نزل منزلا اختار له أصحابه

شجرة ظليلة فيقيل تحتها . فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال : من يمنعك مني؟ فقال : " االله عز وجل " ، فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه ، قال : وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه ، فأنزل االله عز وجل : (واالله يعصمك من الناس)وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا موسى بن عبيدة حدثني زيد بن أسلم عن جابر بن عبد االله الأنصاري قال : لما غزا رسول االله صلى االله عليه وسلم بني أنمار نزل ذات الرقاع بأعلى نخل ، فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه ، فقال غورث بن الحارث من بني النجار : لأقتلن محمدا . فقال له أصحابه : كيف تقتله؟ قال : أقول له : أعطني سيفك . فإذا أعطانيه قتلته به ، قال : فأتاه فقال : يا محمد أعطني سيفك أشيمه . فأعطاه إياه ، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده ، فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " حال االله بينك وبين ما تريد " فأنزل االله ، عز وجل : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته واالله يعصمك من الناس)وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقصة " غورث بن الحارث " مشهورة في الصحيح .وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد

بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب ، حدثنا آدم ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كنا إذا صحبنا رسول االله صلى االله عليه وسلم في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها ، فينزل تحتها ، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها ، فجاء رجل فأخذه فقال : يا محمد من يمنعك مني؟ فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " االله يمنعني منك ، ضع السيف " . فوضعه ، فأنزل االله ، عز وجل : (واالله يعصمك من الناس)وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه ، عن عبد االله بن محمد ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن المؤمل بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة به .وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة سمعت أبا إسرائيل - يعني الجشمي - سمعت جعدة - هو ابن خالد بن الصمة الجشمي - رضي االله عنه ، قال : سمعت النبي صلى االله عليه وسلم ورأى رجلا سمينا ، فجعل النبي صلى االله عليه وسلم يومئ إلى بطنه بيده ويقول : " لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك " . قال : وأتي النبي صلى االله عليه وسلم برجل فقال : هذا أراد أن يقتلك . فقال النبي صلى االله عليه وسلم : " لم ترع ، لم ترع ، ولو أردت ذلك لم يسلطك االله علي " .وقوله : (إن االله لا يهدي القوم

الكافرين) أي : بلغ أنت ، واالله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، كما قال : (ليس عليك هداهم ولكن االله يهدي من يشاء) [البقرة : 272] وقال (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) [الرعد : 40] .